

المهاجر في الرواية العربية المعاصرة بين واقعية المشهد والبناء السردى. دراسة في نماذج روائية عربية معاصرة

زهرة بن يمينة¹

¹ جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم / الجزائر
zohra.benamina@univ-mosta.dz
 <https://orcid.org/0000-0003-1562-8565>

قداوي سومية²

² جامعة البليدة 2 لوئيسي علي / الجزائر
soumykad@yahoo.com
 <https://orcid.org/0009-0009-1177-7740>

نشر: 2024/11/10

مقبول: 2024/11/08

استلم: 2024/06/02

The Immigrant in Contemporary Arabic Fiction: Between the Realism of the Scene and the Narrative Structure. A Study in Contemporary Arabic Novels

Abstract: Perhaps the most important social issue that most contemporary Arab novelists have endeavored to address is the issue of migration and the migrant, dealing with the motives of migration, its effects, and its shadows on the narrative text. In light of this important hypothesis, it is important to raise several questions that go to the heart of the topic, including: the motives of migration, its effects, and its shadows on the narrative text. In light of this important premise, we must raise several questions that go to the heart of the topic, including: How did the image of the immigrant appear in contemporary Arabic novels? Was the genre of the novel able to achieve the convergence between the imaginary and the real? Through this research, important findings were reached, including: The interest of novelists in the topic of migration stems from the importance of this phenomenon, its motives, and its repercussions on the individual and society, which are determined by its immediate and future results, and migration of all kinds is a transgression by man himself on his culture, freedom, and identity.

Keywords: Migration, migrant, identity, imagined, real.

الملخص: اهتمّت الرواية العربية المعاصرة بمعالجة عدّة مواضيع اجتماعية لها صلة وطيدة بهوم الإنسان والمجتمع وما يعترّيه من تغييرات، وتجاذبات حتمتها ظروف عدّة لا تنفك تلقي بآثارها على الفرد والمجتمع على حدّ سواء، ولعلّ أهمّ قضية اجتماعية سعى معظم الروائيين المعاصرين إلى معالجتها هي قضية الهجرة والمهاجر، متعرّضين إلى دوافع الهجرة، وآثارها، وظلالها على النصّ السردي. وأمام هذه الفرضية المهمة، فإنّه حريّ بنا أن نحرك عدّة إشكالات تصبّ في صميم الموضوع منها: كيف بدت صورة المهاجر في الرواية العربية المعاصرة؟ وهل استطاع جنس الرواية أن يحدث المقاربة بين التخيّل والواقعي؟ ومن خلال هذا البحث تمّ التوصل إلى نتائج مهمّة منها: إنّ عناية الروائيين بموضوع الهجرة نابع من أهمية هذه الظاهرة، ودوافعها، وانعكاساتها على الفرد والمجتمع التي تتحدّد من خلال نتائجها الآنية والمستقبلية، والهجرة على اختلاف أنواعها إنّما هي تتجاوز من الإنسان نفسه على ثقافته، وحرّيته، وهويته.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، المهاجر، الهوية، التخيّل، الواقعي.

المقدمة

تمثّل الرواية اليوم أهمّ جنس أدبيّ حاز على القبول الجماهيري، نظرا لقدرتها على احتواء الموضوعات المختلفة، لذلك طَفِقَ الروائيون يكتبون في شتى المواضيع خاصّة في تلك التي لها علاقة وطيدة مع المجتمع، وقضاياها، وهوم الإنسان المعاصر، ومثّل موضوع الهجرة أحد أهمّ شواغل الروائي المعاصر نظرا لأهميته وتشعب أسبابه، من هنا تجلّت أهمية الموضوع وتبرّرت دوافع الاشتغال فيه متّخذة نماذج روائية عربية معاصرة ومختلفة من حيث الموضوع والبناء، وركّز هذا البحث على إشكالات مهمّة وهي: ماهي تجلّيات ثيمة الهجرة وصورة المهاجر في الرواية العربية المعاصرة؟ وكيف تجلّى هذا التوظيف؟ باتّباع مناهج بحث مختلفة منها: المنهج الاجتماعي، والنفسي، والأسلوبي، وقد تمّ تخصيص محاور مختلفة لتقصّي الظاهرة المقصودة بالدراسة ومنها: التّحديدات المعرفية لمفهوم الهجرة لغة واصطلاحا، الهجرة في الرواية العربية المعاصرة، الحرب وصناعة المهاجر المضطّهد، وتحصيل أهمّ النتائج.

1. التّحديدات المعرفية لمفهوم الهجرة لغة واصطلاحا

يدلّ لفظ الهجرة على التّرك والارتحال من مكان لآخر "الهجرة، والهجرة: الخروج من أرض إلى أرض. والمهاجرون: الذين ذهبوا مع النبي ﷺ، وَهَجَرَ فُلَانٌ: أَي: تشبّه بالمهاجرين. قال الأزهري: وأصل المهاجرة عند العرب: خروج البدوي من باديته إلى المدن، يُقال: هاجر الرجل: إذا فعلَ ذلك، وكذلك كلُّ مُخْلِ بِمَسْكَنِهِ مُنْتَقِلٌ إلى قومٍ آخرين بِسُكَّاهُ، فَقَدْ هَاجَرَ قَوْمَهُ، وَسُمِّيَ المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومسكنهم التي نشؤوا بها لله، ولحقوا بدارٍ ليس لهم بها أهلٌ ولا مالٌ حين هاجروا إلى المدينة، فكلُّ من فارق بلده من بدويٍّ أو حضريٍّ أو سكن بلداً آخر، فهو مهاجرٌ، والاسم من الهجرة" (ابن منظور، ج5،

ص 251)، وفي الوضع الاصطلاحيّ تدلّ معاني الهجرة على مفهوم مقاربٍ للدلالة المعجميّة "فهي فعلٌ داخليٌّ يفعلُه المهاجرُ من تلقاء نفسه لمنع يمنعه من المُكثِّ والبقاء في بلده، وذلك لجلب مصلحة لا تحصلُ إلّا بالهجرة، أو دفع مضرّة، لا تدفعها إلّا الهجرة. هذا، وقد تكون الهجرة ظاهرةً صحيّةً طبيعيّةً تتصلُّ بضرورات الحياة كهجرة أسباب الضرر نفاذ المنافع، إلى موارد الرّزق، ومنها هجرة العمّال إلى أماكن العمل" (بودرع، 2015، ص 134)، ووفقَ هذه التّحديدات لمصطلح الهجرة، يتبيّن لنا أنّها قديمة قدم الوجود البشريّ وهي مرتبطة بالمكان ومتطلّبات العيش المناسبة، وإن اصطلاحنا على أنّ هذه الظّاهرة تحدث طوعاً من الإنسان، فإنّ إكراه الظروف الاجتماعيّة، والسياسيّة لها دورٌ في إجبار الإنسان أحياناً على القيام بها أحياناً.

2. الهجرة في الرواية العربيّة المعاصرة

إنّ اتّجاه لفيف من الرّوائيّين العرب إلى الموضوعات الاجتماعيّة وتوظيفها في الرواية، هو من الضّرورات التي باتت تفرضها اهتمامات هذا الجنس الأدبيّ المنوط بتصوير مشاغل الإنسان، وظاهرة الهجرة تحديداً من أهمّ ما شغل غالبية هؤلاء الرّوائيّين لأنّها تتعدّى مجرد سرد لظاهرة اجتماعيّة، إلى اعتبارها ظاهرة ثقافيّة، وفكريّة لها دوافع اقتصاديّة، وسياسيّة، في شقيها المحليّ، والعالمي، وتعدّدت صور هذه الهجرة والمهاجر بين الهجرة من أجل التعلّم، أو من أجل تحسين الأوضاع الاقتصاديّة، أو هجرة فُرِضت بسبب الحروب الأهليّة أو الخارجيّة، ويندرج ضمن هذه الأنواع العربيّ وغيره ممّن أرغمتهم نوازح المختلفة على ارتداد الدّروب الوعرة، وعدّ التّجوير النّاتج عن الحروب والصّراعات أحد أهمّ العوامل التي ساهمت في زيادة عدد المهاجرين خارج بلدانهم، خاصّة في البلاد العربيّة التي عرفت موجات الاضطرابات مثل العراق، سورية، وثورات الغضب العربي في شمال حوض البحر الأبيض المتوسّط، وبديهي أن يصاحب موجات التّجوير هذه فقدان للهوية ومحاولة للحفاظ عليها في الوقت نفسه، ويبقى الجامع لكلّ أسباب الهجرة وأنواعها هو نفسيّة المهاجر وما يعتريها من اغتراب، وبحث عن الأمن لإنحام صوت القلق الوجودي، لهذه الأسباب مجتمعة برزت الأبعاد الإنسانيّة في الهجرة، والتي شكّلت نسقا واضحاً في الخطاب الرّوائي المعاصر، وحاول معظم الرّوائيّين أن يطرّقوا هكذا مواضيع مستلهمين أضرباً من آليات التّجريب الرّوائي والثّورة على الأنساق السّرديّة المعروفة. ومثّلت رواية الطّيب صالح (موس الهجرة إلى الشّمال) أولى الأعمال الرّوائية ما بعد الاستعماريّة المصوّرة للمهاجر العربي وهو في صراع بين ذاته ومحاولة الحفاظ على هويته وانبهاره بعالم الشّمال. كانت رواية تحمل مستويات من الصّراع على مستوى بنيّتها السّردية.

3. الحرب وصناعة المهاجر المضطهد

نبحث الرواية العراقية المعاصرة في تصوير واقع المواطن العراقي في ظروفه المختلفة، فهي كما سُميت عليها: روايات الوجد، ولعلّ أغلب ثيمة غلبت عليها هما ثيمتي الحروب والتّجريح، وليس ههنا على الإنسان مواجهة دمار الحرب وخسارة الوطن، وتُعدّ رواية اللاّجئ العراقي لعبد الله صخّي متممة للروايتين: (خلف السّدة) ورواية (دروب فقدان) لتتمّ بذلك ثلاثية قدّمت أنموذجا روائيا اعتنى بصورة العربيّ النّازح والقلق، وهي مثال حيّ عن الهجرة من بحيم الاعتقال والتّعذيب الجسديّين لمواطن عراقيّ إلى دمشق التي لم تهبه الفردوس المفقود، وغلاف الرواية يشي بكثير الدلالات السّيميائية، إذ ظهر فيها المهاجر بلون قاتم وكأنّه منحوت من حجر أو غرانيت، وبرزت المفارقة في حمله لحقيته بين يديه والمعتاد أنها تُسحب على الأرض، كما تخرج منها جذور مغروسة في عمق الأرض بلون سائل ملتهب، تأخذ شكل سلاح مُوجّه إلى حامل الحقيقة، هذه الدلالات مجتمعة تتمّ عن عذاب جسديّ عبّر عنه اللون القاتم، وعن عذاب ونفسي عبّرت عنه صعوبة حمل الحقيقة المثقلة. وعدّ هذا الغلاف جزءا من تفاصيل الرواية التي لم نتوان عن تصوير صورة بطلها النّازح من جنوب العراق، والشّاهد على مصير التّيه الذي رافق البطل (علي سلمان) في رحلة اللّجوء، وقد أحاطه الرّوائي بمجموع صفات تتمّ عن حالتي الضّياع والشّقاء، وهذا المصير المظلم يشمل العراقيّين المهاجرين الذين اضطرتهم الظروف إلى الهجرة



إلى دمشق والدّول العربيّة والغربيّة، فهم الكادحون الخائفون من بحيم الملاحقة السّياسية في العراق. وههنا تبرز الدّوافع التي ساهمت في فاعليّة الهجرة وإفرازها للاضطراب النّاتج عن التّنشئة الاجتماعيّة وعدم تقديرها للإنسان، إنّ صناعة الإنسان تتشكّل أولا من المحيط المباشر الذي ينسج ملامحه على المدى البعيد، ومن هذا

المنطلق نتّضح واقعيّة الروايات التي تطرح ظاهرة الهجرة وهي محاطة بنسق من الأوصاف الاجتماعيّة، والنّفسيّة "اختيار نماذج إنسانيّة مسحوقة، تعيش على هامش المجتمع، وتفقّ الوعي الأيديولوجي على الوعي الجمالي، واستلهاهم بعض أساليب القصّ والحكي العربيّ القديم، بعدما سيطر الشّكل الأدبيّ الوافد من نتاج الأجيال الواقعيّة السّابقة، كان من السّمات البارزة في مسار الرواية العربيّة هو من صميم جماليات التجريب

الحدائي" (ذوات، 2015، ص 21). فسرد الروائي العربي لتجارب الهجرة هو تجريب حدائيّ اشتغل على الشكل والمضمون وفتح مجال التجريب لأنماط جديدة من السرد الروائيّ المعاصر.

إنّ عرض صورة المهاجر في رواية اللاجئ العراقي لم يقتصر على عليّ سلمان وحده، بل كان هذا البطل محاطاً بنماذج من المهاجرين العراقيين، منهم: خولة زوجته، وآخرون كان وجودهم في دمشق مُرْعِزاً يُلْقِي كثير من القلق لأنّهم وقعوا تحت وطأة التّشَتُّ والضياع وهشاشة العلاقات، وقد اتّضح هذا جلياً في علاقة عليّ مع المهاجرة العراقيّة خولة التي هاجرت إلى دمشق رغم منعها من ذلك، وبعد أحداث متتالية تزوّجا وأقاما معاً، ولكن بعد وقتٍ شاب علاقتها التوتّر، فهي ذات شخصية غامضة ويظهر هذا في أحد المقاطع السردية التي وصفت علاقتها بعد الانفصال، إضافة إلى شخصية (زيدان) المُضطهد والمُهارب من بحيم التعذيب النفسي في العراق، ومن الملاحظة المتكرّرة بين بيروت واليمن، ومن خلال هذه النماذج تتشكّل السّمة الرئيسيّة للمهاجرين العراقيين، وهي العوز للأمان.

شكّلت طفولة عليّ سلمان أرضيّة تَرَبَّحَ فيها العقاب الجسدي والنفسي، وساهمت فيه الأسرة وفضاء المدرسة، وسياسة الحرمان التي يتّبعها النظام تجاه العراقيين، لذلك كان اختيار الهجرة مصيراً حتمياً وسبيلاً للخلاص، واتّخذ هذا المصير صورتين في حياة المهاجر الرئيسيّ في الرواية، الصّورة الأولى هجرته إلى دمشق، والثانية هجرته إلى لندن، وتميّزت كلاهما بأحداث لا تخلو منها حياة أيّ مهاجر غريب، ففي دمشق عانى عليّ من ويلات التهميش، والبطالة، والفقر، والاعتداء الجسدي، وكانت التفاصيل كلّها توحى بالفوارق العنصرية القائمة بين المقيم والمهاجر، وشكّلت معاناته مع شبح البطالة والجوع أهمّ هاجسٍ تحلّ من أجله الدّلّ والهوان، ويصفُ الروائيّ حالته في أحد المقاطع هو يكابدُ ألم الصبر على مرارة العمل: "ما أدهشه وتركه في حيرة مربكة لفترة طويلة، هو أنّ مسؤول الدّار تغيّرت طريقته تعامله معه بعد نحو أربعة أشهر، فأخذ يأمره، ما إن يدخل المبنى بأن يُعدّ له القهوة، ثمّ يطلب منه أن يعدّها لضيوفه أو لزبائن ييغون طبع مجلّة أو توزع كتاب، كان عليه أن يجلب له سندويشات من المطاعم المجاورة، ويمسح الطاولات، ويكنس الأرضيّة، إضافة إلى طباعة النصوص ومراجعتها وتصحيحها. ثمّ راح يكلفه بنقل صناديق الكتب الثّقيلة، التي تُرسل للدّار لتوزيعها على المكتبات من الطابق الأرضيّ إلى الطابق الأوّل عبر سلّم شبه عموديّ شاهق" (صّحّي، ص 39)، وغير هذا من مواقف الغبن الكثيرة، حوّلت نظر عليّ إلى ضرورة الهجرة، وكان ذلك بعد ذهاب زوجته خولة، والتحاقه بها بعد جهد ونصب.

مثّلت الهجرة إلى لندن مرحلة ثانية عكست شغف البحث على حياة أفضل، وهي مرحلة من عمره لم تخلُ من القلق "في أوّل صباح له في الغرفة رقم 9 استيقظ مبكراً بعد أن أمضى ليلة بلا سكينه، نوم

مضطربٌ متقطعٌ تخلّته سلسلة من الأحلام والكوابيس الناقصة أو الغامضة، بعضها مخيف يبعث الرعدة في جسده كلّما تذكّره. ليس تفاصيل الأحلام التي يتذكّرها، إنّما لحظات الرعب التي تخلّفها، والرجفة التي تعقبها" (صحي، 2017، ص 6)، إنّ حياة التهديد التي وسمت حياة علي صنعت منه شخصيّة هجينة يتصارع فيها الماضي مع الحاضر، وأسئلة وجوديّة ظلّت حاضرة في ذهنه كثيرا، هو لماذا أنا؟ وكيف حدث ذلك؟ ولم يهدأ بحجم هذه الأسئلة إلّا بالبحث عن البديل، أي الهجرة إلى أوروبا، وهو الحلّ الذي رآه هو وجموع العراقيين في دمشق، وفي هذه الهجرة اتّضح لعلّي أنّ أمورا كثيرة تغيّرت عمّا كانت عليه في سورية ولبنان، وأوّل بوادر هذا التغيّر هو صدمته في شخصيّة زوجته خولة التي تحوّلت من شخصيّة خائفة، محبة، راغبة فيه إلى شخصيّة راغبة عنه، ومتغيّرة في المزاج والطّباع كما وصفها " لم يكن راغبا برؤيتها، ودّ لو أنّها تغادر، لذلك لم يبادر بالحديث معها ويسألها عن أحوالها. ولأوّل مرّة منذ تركه منزلها في منطقة ويمبلي أحسّ أنّ قرارها بالانفصال كان لصالحه مهما كانت أسبابه. إنّ نوع من الخلاص، نوع من مواجهة الحياة بدون مساعدة أيّ أحد. رأى أنّ استمرار أيّ علاقة مضطربة ينطوي على أسلوب عديم للعيش دون أيّ إحساس بالمتعة أو السعادة. سمع وقع أقدامها تتعد على الدّرجات الحديدية فغمره سكّون الغرفة وتذكّر وجه ساندرا المليء بالحويّة والفتنة" (صحي، 58)، إنّ إحساس المفارقة بين أنماط العيش زاد عندما كان يرى صورة جيرانه الأجانب وهم يتقنون فنّ معاملة العيش والحبّ معا، بينما هو العربي المهاجر تعوزه أبجديات هذا العيش" في غرفته جلس على طرف السرير يتأمّل صوت ساندرا الكريستالي، يستعيد صورتها الباهرة المهمة، لقد أشاعت في قلبه المكّوم فرحا طفولياّ لذلك البريق الذي يشعّ من عينيها اللتين تُنافسان الكواكب. احتضن وجهه بيديه يفكّر في حياة هذين الشّابّين الهادئة يقارنها بحياته المهذّدة على الدّوام، وحياة جيله الذي يعاني من العنف السياسي، والتعذيب الوحشيّ في السّجون، الحبّ المنوع، والحرمان الجنسي، وانعدام الفرص، القسوة، الانتهاكات، والاعتداء، غياب التّسامح، والعقاب العائلي بالضرب المبرّح أو الحرمان من الطّعام لأدنى هفوة، تلك الحياة المتوتّرة الجافّة القاحلة تفقد المرء صوابه، تدفعه لارتكاب أبشع الأخطاء" (صحي، ص 9)، فقارنة عليّ نفسه مع غيره ممّن لم يتعرّضوا لنفس اضطهاده، سؤال ينمّ عن زعزعة ثقته في نفسه التي يراها غير مؤهّلة لعيش كريم، بل وينجح هذا السّؤال في خلق عالم عقابيّ بديل عن عالم العدالة الإنسانيّة.

رغم البحث اللاهث من قبل عليّ عن الأمن والاستقرار والهدوء في لندن، ورغم تأخّر إثبات إقامته فيها، إلّا أنّ إحساسا بالأمان وقيمة الإنسان كان نصيبه في بلاد الضّباب، غير أنّ أمنياته لم تتحقّق لأنّ الموت باغته كقدّر يجمع شتات العمر في جوّ حزين، لم يستمل أفئدة المهاجرين العرب ولا حتّى خولة

زوجته السابقة " سألتها الشرطة عن علاقتها بعليّ سلمان وما تعرفه عنه. جاء عدد قليل من العراقيين المنفيين الذين أخبرتهم خولة بما حدث، تبعهم أفراد من مؤسسة دفن الموتى وهم يحملون تابوتا أنزلوه أمام باب الغرفة رقم 9 وانتظروا قرار الشرطة بالشروع بإجراءات الدفن. توزّع المشيعون واقفين بجوار سيارة مؤسسه دفن الموتى السوداء في الشارع العام أسفل المبنى، وعلى درجات السلم وداخل الشقة لم يبك أحد منهم، وحدها سانددار كانت تبكي وهي تستند إلى سياج الشرفة" (صحي، ص 192، 191). في هجرة البحث عن الفردوس المفقود يظهر الموت قدرا حتمياً يجعل الخلاص من الألم، وتنتهي عنده الأمنيات كأنها لم تكن. في شكل من التجريب والحدائث السردية صور عبد الله صحي حياة العراقي المهاجر اللاجئ، فورد البناء الفني للرواية مختلفاً عن الأنظمة السردية التي تتابع فيها الأحداث بطريقة كلاسيكية، ففي كل مرة كان يقطع على القارئ تتبعه لاسترسال الأحداث وغالباً ما يكون السرد بطريقة عكسية. ونظراً لاستغراق الروائي في تفعيل الوقائع التاريخية، والاجتماعية في الرواية، ترتب نسق التجديد في البناء الفني المهيمن على الرواية. وعموماً تجسّد في رواية اللاجئ العراقي سمات الواقعية التي جمعت بين التاريخي والاجتماعي فأصبغها عليها متعة سردية لافتة.

في سياق هتك الحروب لحرية الإنسان، تردّ رواية مها حسن، (عمّت صباحاً أيّها الحرب) أنموذجاً صارخاً تنشت فيه الذوات، وتفقد معنى وجودها الإنسانيّ الرّاقى، ووظفت مها حسن البيت كقيمة وهوية وانتماء، وفقدان البيت هو فقدان الصّلة مع من يعاشرهم " ومن الخطأ النظر إليه أنّه مجرد رُكام أو جدران يُمكن تطويقها بالوصف، أو التركيز على مظهره الخارجي، لأنّ هذه الرؤية ستُجهز على الدّلالة الكامنة فيه، وتُفرّغه من كلّ محتوى" (بحراوي 1990، ص 43)، ومن ظلال البيت يردّ غلاف الرواية مكتنزاً برمزية البيت، إذ تظهر خلفية خضراء عليها أواني المطبخ وتحضير الأكل. وفي هذه العتبة إشارة إلى الألفة وما يجعل الأسرة مجتمعة، وعتبة الرواية الأولى بدأت بذكر البيت والتعلّق به (لو كان عندي بيت) والعتبة الثانية (لا بيت في حلب)، وشخص الرواية فقدوا بيوتهم، ومن ثمة أمانهم وذاكرتهم وحمايتهم فتشتتوا



وشرّدوا. ووصف البيت متّسع في الرواية إذ شمل بيوت سكّان الحارة أيضا، والعلاقات المتداخلة بين ساكنيها. إنّ الحرب في سورية أطفأت شعلة القرابة بين سكّان البيوت وغيّرت كثيرا من ملامحهم.

يشوب الصّراع الدّاخلي شخصيات الرواية، وكذا الصّراع بين ضرورة الفرار من الحرب في سورية والبحث عن الأمن في المهجرة، وبين صدمة

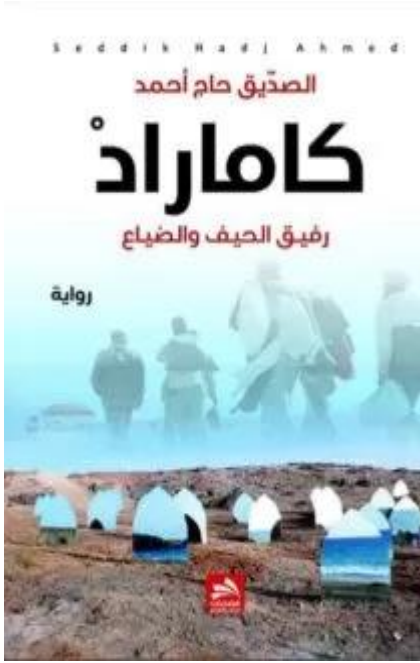
أرض المثالية والأحلام، المهجر، وبين الحنين إلى الوطن الأصل، وتستهلّ بها حسن أوّل فصول روايتها بعنوان (لا بيت في حلب) تعبيرا عن أثر البيت وعلاقة الانتماء بالإنسان، وفقدان البيت هو النواة الأولى التي تبدأ بها رحلة الضّياع، ثمّ تُضيف إلى هذا الاستهلال مقدّمة تلخص موضوع الرواية في قولها: "أتمنّى أن أهدي هذا الكتاب إلى أخي الذي قاطعني، بسبب الحرب، أخي لؤيّ الثاني بين أخوتي الأربعة. هاجر إخوتي الثلاث، وأختاي، وتبعثروا في بلدان شتّى، أخي الأكبر ماهر فرّ إلى هولندا، وفرّ عامرُ الثالث بينهم إلى فلندا، والصّغير حسام موضوعه طويل ما يزال عالقا في أوروبا دون إقامة محدّدة، أمّا سها فقد وصلت أخيرا إلى السويد، والأخيرة نائلة بقيت في تركيا" (مها حسن، ص 11)، إنّ هذا الفراق بين الأجساد، ودد نفورا بينها فغاب تألفها، وأصبح لكلّ فرد من هذه العائلة المبعثرة هواجسه، وأحاسيسه، ومصيره.

تشبي تفاصيل الرواية بعوز الإنسان إلى الأمن والأمان، فيحدث أن تُقيّد حياة المهاجر حسام داخل مجمع للمهاجرين تنهار فيه أحلامه وتصوره المثالي تجاه الغرب، ففي مجمّعات المهاجرين تُسلَب كلّ الحقوق وتغدو حياتهم سجنًا منظّمًا في انتظار الحياة السّويدية، في انتظار العيش داخل السّويد، واللقاء بالسّويديين، أولئك الكائنات البيضاء الجميلة، سيبقى اللاجئُ محكوما بالاعتقال داخل حياة ضيقة، لا أحلام إذن بالعيش خارج مجتمع صغير، مجتمع له قوانينه التي لا تُشبه قوانين السّويديين، هنا لست في أوروبا ولا في اليونان، ولا في تركيا" (مها حسن، ص 68)، فلقب المهاجر لا ينطبق على حسام وحده إنّ حلم الاستقرار المهاجر في الأرض التي احتضنته، يعني حياة تليق بالإنسان، هكذا كان يحلم حسام إذا تحصّل على الإقامة في السّويد حين أحصل على الإقامة، سأمّنه الرّقم الرّباعي، أو الرّقم الوطني، حيث ثوّف كلّ الأشياء هنا عن هذا الرّقم السّحري الذي من دونه لا يحقّ لي الدّهاب إلى المدرسة لمتابعة دروس اللغة السّويدية، وكذلك حضور جلسات الاندماج التّابعة للبلديات، كما أنّني سأحصل على بطاقة مصرفية، بموجب هذا الرّقم

وسيكون لديّ حساب مصرفيّ صغير، أُسدّد عبره التزاماتي... ستكون لي غرفة خاصّة أرتبها وأنظفها وأرتّب أغراضي فيها..." (مها حسن ص 73) هكذا تتوالى الأمنيات على بال حسام والتي في الحقيقة لا تتجاوز كونها حقوق شرعية لأيّ إنسان، غير أنّ الهجرة تعبت بكلّ القوانين فيغدو الحقّ حلماً. إنّ التّوصيف الذي برعت فيه مها حسن وهي تحيط شخصياتها به، جعلها تبرز أكثر في مجال الاشتغال السردّي، فرافق الخوف والقلق، والضياع هذه الشخصيات منذ فقدتها لمركز انتمائها، البيت. كما برعت هذه الرواية في انتقاء العتبات ونتائج الفصول. كما خاضت الرواية غمار التّجريب السردّي الذي اعتمد على تقنيّتي الاسترجاع والاستباق اللّتين أضفتا كثيراً من المتعة على هذه الرواية.

4. المهاجر غير الشرعي في رواية كاماراد، رفيق الحيف والضياع

الهجرة غير الشرعية هي التي لا تحتكم إلى أطر قانونيّة أو نظاميّة، وهي من أهمّ الظواهر التي لم تسلم منها أيّ دولة عربيّة كانت أم غربيّة، وأهمّ ما يميّز هذا النوع من الهجرات هو أنّ دافعها يختلف عن الهجرة التي تكون طلباً للجوء بسبب الحروب أو عدم احترام حقوق الإنسان وتكون غالباً بحثاً عن فردوس مفقود في الوطن الأصل رغم استقرار ظروفه، ومثل المهاجرون الأفارقة أهمّ عنصر بشريّ غصّت به دول بحر الأبيض المتوسط وأوروبا على حدّ سواء، وتلخص رواية (كاماراد، رفيق الحيف والضياع) ملحمة إفريقيا والصّحراء الجزائريّة، لأنّ الهجرة من النّيجر-المكان الأساسي في الرواية- إنّما تمّ من خلال العبور على منطقة أدرار، في صحراء الجزائر " وتعالج رواية " كاماراد قضية الهجرة غير الشرعية للأفارقة نحو الفردوس الأوروبي، وتدور أحداثها حول شخصية نيجيرية محورية، تدعى مامادو، تنطلق في رحلتها من عاصمة النيجر نيامي، نحو فردوس الشمال، سالكة أصعب الظروف عبر الصحراء الكبرى مع المهريّين، للوصول إلى جنوب الجزائر كمحطة أولى ثمّ باقي دول البحر المتوسط كمرحلة ثانية، لتنتحل هوية شخصية أخرى ماليّة" (الإذاعة الجزائريّة)، وكّرّس مؤلّفها فكرة مخرج باحث على فكرة فيلم للفوز بجائزة (كان) للمهرجان السينمائي الذي وقع تحديداً في 2012 / 05 / 18 بعروس الضفّة الشماليّة للمتوسّط، وهو جاك بلوز الذي اختار بلاد النيجر للبحث عن مكان إخراج فلمه، وإذ به يجد به البطل (مامادو) الإفريقيّ الذي راح يروي له حكايته في الهجرة غير النظاميّة من بلاد النّيجر.



1.4. بلاغة العتبات الروائية

ويوجي غلاف رواية (كاماراد رفيق الحيف والضياغ) - العتبة الأولى- بكثير من الدلالات على مستوى الرّسم والألوان، فاللفظ الأوّل (كاماراد) منقول دون ترجمة عن اللغة الفرنسيّة، ويعني الرفيق، وكان يُطلَق على مجموع المهاجرين غير النظاميّين الرّفقاء لاشتراكهم في المصير نفسه، من جهة أخرى يظهر غلاف الرواية بقسمين؛ القسم الأوّل الأعلى خلفيته يُظهر أشخاصا مغادرين حاملين أمتعتهم على ظهورهم بلون أزرق سماويّ رمزا إلى لون البحر، بينما القسم

الثاني يمثل أرضا جرداء بُنيت عليها قبورا بلون أزرق، كما تنصّد الفصول عتبات أخرى تنتمي إلى الحقّ الدلالي نفسه هي: (القبر، المحشر، على الصّراط) وساهمت هذه العناوين في تشكيل محتوى الفصل الذي صوّر فيه صاحب الرّحلة مسار العذاب الجسديّ والنّفسيّ من النّيجر إلى صحراء الجزائر، ومحاشر الأطفال والشيوخ والنساء في هذا الارتحال، وظهرت في المقابل عتبات من حقّ دلاليّ آخر، وبدلالات سيميائية مختلفة ومنها: (عين قزام، مرسيليا ليكاماراد/ تمراست، باريس ليكاماراد/ هامش مدن الضّواحي، اللّذة والممنوع/ هامش مدن الضّواحي، الشّقاء في النّعيم/ أدرار، روما ليكاماراد) وهي عناوين تختصر الجزء الثاني من حياة المهاجرين في عرض صحراء الجزائر، وقد وصفها المهاجر مامادو بـ: (مرسيليا، باريس) كناية عن الجنّة المُستحضرة في الصّحراء الجزائرية التي كانت تختلف كثيرا عن صحراء النّيجر على الأقل من جهة المرافق الاجتماعية والمقاهي، والشّوارع، وإحساس المهاجرين بالأمن وعدم مطاردة قوّات الأمن لهم، خاصّة وأنّ منظر المهاجرين أصبح مألوفا.

أمّا العتبة الثانية فقد استهلّها الروائيّ برسالة تناقلتها وسائط التّواصل الاجتماعيّ كتبها أحد المهاجرين إلى أمّه في رحلته وهو في قارب الموت: "أنا مُترَحُّ يا أمّي؛ لأنّ القارب غرق بنا عرض البحر... من يدري؟ ربّما أكون اللّحظة في جوف الحوت!!! لم أوفّق لبئس بختي..فيما منيت النّفس به، حيث الجنّة هنالك على ضفّة الألدورودادو...أعرف أنّي تركتُ خلف ظهري ترسانة ثقيلة من الدّيون على كاهل الأسرة...تقويّت

بعكازها على ابتزاز سماسرة تهريب البشر في برّ المومة الخيف وبحر المتوسط المريع.. رجاء إرسال هذه الأخيرة، بعد غنيمتي بالفردوس المبين. أسترحك يا أمي لا تجزعي.. إن لم يصل رفاقي وألحد بجانب طمر أبي" (الزيواني، 2016، ص 7)، وتعدّ هذه عينة من عشرات رسائل المهاجرين غير الشرعيين الذين دونوا تفاصيل غرقهم في عرض المتوسط، لقد خلّصت هذه الافتتاحية مصير التيه وخيبة تحقيق الرجاء "ومن هذا المنطلق يؤسس العنوان في الخطاب الروائي موقعه الخاص والتميز، انطلاقاً من بنيته التركيبية والسيميائية، كما يعلن جوده بصفته (نصاً مصغراً) وباعتباره مكوناً متميّزاً في سياق فضاء صفحة العنوان الزاخرة بالعلامات اللغوية والتشكيلية، لا يفترض العنوان الاستقلال التام عن النص، فهو بالتالي عنصر من العناصر المكونة للخطاب الروائي برّمته" (أشهبون، 2011، ص 14).

2.4. المهاجر بين فردوس الخلاص وخيبة الرجاء

تواصل أحداث الرواية التي يسرد فيها مامادو تفاصيل رحلته للمخرج مبتدئاً إيّاها بتصويره لعيشة الغبن التي كابدها في قريته في أدغال النيجر، إنه المكان الأكثر جلباً لتجار البشر وتحفيزاً لهم على دفع ما لديهم حتى يغادروا جحيم أفريقيا المוגل في الفقر، وهذا ما كان يحدث به مامادو نفسه سرّاً: "مذ بدأت ذبابة الهجرة تُحدث طيننا في مخي، كنت كثيراً ما أحدث نفسي قبل النوم وأنا مستلقٍ على حصيري برحبة البيت في العتمة، أسلّها بالقول: إنّ خيار وقوفك على جبل الأقرع المطلّ على مدينة سبتة أو جبل G وروو G —و المطلّ على مدينة مليلية، ممّا تستطبّ به عينيك ويمنحك رؤية الفردوس بلا واسطة يا مخلوق.. ألا تحبّ أن ترى حلك من البعيد القريب؟ ترى منازل الصّفاء، الحمراء، البرتقالية، المتدرجة على الجبل المقابل؟ وتبصر بأّم عينيك أهله يتحرّكون.." (الزيواني، ص 46)، إنّها البداية التي أجّجت الحلم وأرست قواعد التفكير في هجرة غير آمنة يحفّها حلم الوصول وتطمح للوصول إلى ما بعد البحر، وخُتمت نهايتها بموت البعض، وخيبة ورجوع بعضهم إلى نقطة البدء.

في بعض المقاطع السردية الأخرى تمّ تصوير مشاهد مختلفة من حياة المهاجرين ذوي جنسيات مختلفة من النيجر، مالي، ودول أفريقية أخرى في صحراء الجزائر، فظهرت صورة المهاجرات الإفريقيات وهنّ يحترفن بيع الجسد لسدّ حاجة الفقر، وتكّلات المهاجرين كلّ حسب بلده.. وكلّ يسعى للانتقال إلى سبتة أو مليلية المغربيّتين في أقرب وقت، إضافة إلى ميلهم المفرط لمختلف الجُنح الأخلاقية مثل تزوير العملة وترويحها، وكانت تجمّعات المهاجرين تغصّ بالمكان الذي لم يعد يعرف سواهم "أفواجٌ غفيرة يقذف بها الحيّ للخارج في هذا الصّباح الكاماراديّ الباريسي.. البعض يركض، البعض الآخر يمشي متعجلاً، كما نسير كالقوافل" (الزيواني، ص 225)، وفي مقاطع أخرى يظهر المهاجرون وهم مدعّنون لحاجة العمل

الشَّاقُّ في ورشات البناء استجابة لحاجة جمع المال من أجل بلوغ الحلم، وأملا في النجاة لا يترددون في تزوير جوازات السفر وهوياتهم وحتى دياناتهم، كما ورد على لسان مامادو: "كلُّ شيء يهون من أجل تحقيق حلمي... سأعلق الصليب في رقبتى، وألبس عباءة اليسوع من أجل خداع رجال الأمن، أنا مالياني مسيحي كما في جوازي.. في عمقي سأبقى نيجيريا مسلما وما يضيرني ذلك.."(الزيواني، ص 291)، غير أنَّ الأمان الذي كان في عرض الجنوب سرعان ما تلاشى عند محاولة دخول الرِّفقاء دولة المغرب، إذ تفرّقوا بين ناج منهم وواقع في قبضة أيدي الحرس الحدودي، وسرعان ما تمّ ترحيلهم إلى بلدانهم.

لم يُركِّز الصديق حاج أحمد في روايته حول الهجرة غير النظامية على ثيمة الهجرة مجردة من حيثيات سردية مختلفة، بل زاد من إبراز هذه الظاهرة مهارة توظيفه لطبيعة المكان ودوره في اختيار موضوع الرواية القائم أساسا عليه، أي الصراع النفسي بين الفرار من الجنوب والتّوق إلى الشمال، إضافة إلى تقنيات سردية عدتّ ضربا من التجريب الروائي ومنها توظيف صوت الهامش المتمثّل في المهاجرين الأفارقة، وتوظيف التّراث المادّي واللامادّي في إبراز جمالية المكان المُهاجر إليه، ولم يتوان هذا التّنوع من إدراج لمحة فلسفية وجودية تسأل الإنسان عن مصيره وهويته، وكلّ هذه التقنيات مجتمعة تدلّف بنا إلى استنتاج نوع التجريب الروائي الذي وظفه الزيواني في هذه الهجرة.

5. الخاتمة

- من خلال ما تقدّم يمكن أن نستنتج عدّة نتائج منها:
- إنّ غناية الروائيين بموضوع الهجرة نابع من أهميّة هذه الظاهرة، ودوافعها، وانعكاساتها على الفرد والمجتمع التي تتحدّد من خلال نتائجها الآنية والمستقبلية.
 - يتبيّن لنا من خلال الهجرة التي يكون دافعها اللجوء السياسي أنّ معاناة الإنسان تكون جسدية ونفسية يُراهن فيها على أمنيته للوصول إلى مبتغاه، ومن خلال رواية اللاجئ العراقي اتّضح أكثر أنّ سعي المهاجر يكون بحثا عن قيمته كإنسان.
 - تبدو موجات الهجرة غير النظامية مثل سباقٍ نحو فردوس منشود غير مدروس العواقب، وكثيرا ما يخفق فيه مريدو هذه الهجرة.
 - معالجة الروائيين: عبد الله صحّي، ومها حسن، والصديق حاج أحمد لثيمة الهجرة تمّ عبر استحضار جملة من آليات التجريب الروائي انعكست جماليا على المتن السردى، وكانت بلاغة العتبة الروائية جزءا مكملّا لميزة الحداثة السردية.

- إنَّ الهجرة على اختلاف أنواعها إنّما هي تتجاوز من الإنسان نفسه على ثقافته، وحرّيته، وهويّته.
6. قائمة المراجع البليوغرافية

1. ابن منظور(دت)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط.).
2. بحراوي حسن (1990)، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1.
3. <https://radioalgerie.dz/news/ar/article/20160214/68621.html>
4. الصديق حاج أحمد (2016)، كاماراد، رفيق الحيف والضّباع، دار فضاءات للنشر.
5. عبد الرحمن بودرع (2015)، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، دار كنوز المعرفة.
6. عبد الله صخّي (2017)، اللاجئ العراقي، دار المدى.
7. عبد المالك أشهبون (2011)، العنوان في الرواية العربية، محاكاة، دمشق.
8. مجلّة ذوات (دت)، الرواية العربيّة التحوّل والتحدّي، العدد 20، 20.
9. مها حسن (2017)، عمت صباحا أيّها الحرب، منشورات المتوسط، ميلانو إيطاليا، ط1.